المداخلة الخامسة

التعليم في عهد الاستعمار وتكوين النخبة: حالة معهد عزرو في منطقة البربر المغربية

محمد بن هلال

ملخص: في البلدان التي خضعت سابقاً للاستعمار، تكونت فئات إجتماعية جديدة بناءً على مساهمة الأنظمة التربوية والإدارية التي أدخلتها السلطات المستعمِرة إلى حدٍ بعيد. وأبرز ما أفرزته هذه التركيبة تكوين نخب متجانسة على الأصعدة السياسية والفكرية والإدارية، في إطار معهد تربوي واحد، ألا وهو معهد أزرو البربري. من هنا، تقوم الورقة بمقاربة تحليلية للعوامل السوسيولوجية والتاريخية التي جعلت من معهد أزرو مصدر انبثاق هذه النخبة المدنية والعسكرية، وتسعى إلى تفنيد الظروف التي ساهمت في التمثيل القوي لطلاب المعهد في الإدارات العامة ضمن المغرب المستقل لاحقاً. تبدأ الورقة باستعراض تاريخ تكميلية أزرو منذ إنشائها عام ١٩١٤، مبينةً الأهداف التربوية والاجتماعية والسياسية التي حدت بالفرنسيين إلى اتخاذ هذه المبادرة، ثم تنتقل إلى توصيف البنية العددية للتلاميذ والسلم التعليمي باعتبارها استراتيجيات ضرورية لتحقيق الغايات. بعد ذلك، تقوم بإظهار خصائص المدرسة وأجواء المواجهة الثقافية التي نشبت فيها بين الضباط المسؤولين عن سير السياسة البربرية التحديثية من جهة، وسلطات الرقابة الفرنسية المناهضة لهذه السياسة من جهة أخرى، والتي شكلت مجتمعةً أرضيةً ملائمة لتفاقم الحركة المناهضة للتوجهات الفرنسية بين طلاب المدرسة. يعمد الباحث في مرحلة لاحقة إلى تحليل وظيفة المدرسة ضمن التراتبية الاجتماعية في المناطق البربرية، مستعيناً بمعطيات إحصائية حول الحركية الاجتماعية للطلاب ومساراتهم المهنية قبل وبعد استقلال المغرب، مثبتاً بذلك المساهمة الفعالة للتكميلية في الحركية الاجتماعية للفئات الأقل يسراً، وفي تحديث المهن التقليدية، وفي إحداث تغييرات وجودية داخلية ضمن المجتمع البربري آنذاك.

موضوع الدراسة والمخطط المبدئي

تكونت في البلدان المستعمرة قديما فئات جديدة، تشكلت بشكل أساسي، بفضل النظم التربوية والإدارية التي أدخلتها قوى الاستعمار. أهم النتائج التي أفرزتها هذه النظم التربوية والإدارية، ظهور نخبة سياسية وفكرية وإدارية متجانسة معدة في المدرسة ذاتها، ولها المسلك نفسه. إنها تلك النخب التي تكونت في مدرسة أزرو المتوسطة للبربر.

إن حالة كهذه لم تكن وليدة الصدفة، وعلينا أن نعمل، في إطار هذه الدراسة، لنوضح من جهة بعض المظاهر الاجتماعية والتاريخية، التي جعلت من متوسطة أزرو المركز الذي خرجت منه هذه النخبة، ومن جهة أخرى أن نرى لماذا تواجدت هذه النخبة بكثافة في أجهزة الإدارة السياسية في المغرب المستقل.

وتقودنا هذه الإشكالية إلى دراسة الدور الذي لعبه التعليم في متوسطة أزرو في نشوء ونمو نخبة بربرية مدنية وعسكرية في المغرب، وإلى تحليل نظام أو نظم القيم التي تنوقلت ودامت خلال حقب مختلفة من تاريخ المغرب. وخضعت متوسطة أزرو البربرية منذ عام ١٩٢٧ تاريخ إنشائها، حتى عام ١٩٥٦ تاريخ استقلال المغرب، لتغيرات عديدة فرضتها سلطات الوصاية الفرنسية.

لا يمكن فصل مدرسة أزرو المتوسطة، ككل مؤسسة تعليمية، عن المجتمع الذي أفرزها، والتي تساهم في تكوينه" كما يقول أنطوان بروست Antoine Prost. وبهذا المعنى ووفقاً لهنري والون Henri Wallon، فإن المدرسة مؤسسة لا يحدد التاريخ شكلها وحده، بل إن موقعها محدد اجتماعياً وسياسياً. وهكذا فإن المدرسة أو المؤسسة التعليمية تكتسب أهمية خاصة لاعتبارات عدة.

يتفق علماء الإجتماع التربوي بعد ماكس ويبير Max Weber ودوركهايم Durkheim على إعطاء المدرسة دوراً على علاقة مباشرة بالبنى الاقتصادية والاجتماعية فالسياسية، حتى تصبح المؤسسة - تحت مظاهر الحيادية- أداة لممارسة السلطة السياسية من قبل الطبقة الحاكمة. فالمؤسسة التعليمية تقوم بنشر عقيدة هذه الطبقة، وإبقاء امتيازاتها بل تقويتها. من هذا المنطلق يعتبر كل من ب. بورديو P. Bourdieu و ج. س. باسورونJ.C. Passeron ان "أي نظام تعليمي يدخل إطارا مؤسساتيا، إنما تعود المميزات الخاصة بهيكليته وطريقة عمله، إلى كونه يحتاج

إلى أن ينتج أو يعيد إنتاج شروط المؤسسة، التي يكون وجودها وبقاؤها (الإنتاج الذاتي للمؤسسة) ضروريين لممارسة وظيفتها التلقينية، وإنجاز وظيفتها في إعادة إنتاج مصطلح ثقافي لا يكون هو واضعه (إعادة إنتاج ثقافي) وتساهم إعادة إنتاجه في إعادة إنتاج العلاقات بين المجموعات والطبقات (إعادة إنتاج اجتماعي).

فالمؤسسة التعليمية المرتبطة ارتباطاً وثيقا بوضع المجتمع في وقت ما من وجوده ومن تاريخه، مهمتها الأساسية دمج الفرد في المجتمع، أي توفير تدريس يسمح للمتلقي استبطان عقيدة الطبقة الحاكمة، ونظام قيمها واستيعابهما، وفي الوقت ذاته تحويله إلى وسيط فعال لتحقيق مشاريعها الخاصة. وقد شكل هذا الدمج الاجتماعي هدفا لحكم الوصاية الفرنسي في المغرب.

أولاً: التعليم الفرنسي- المسلم

لم يكن إنشاء مصلحة عام ١٩١٢ ومن ثم مديرية للتعليم العالي عام ١٩١٥ خاضعة لسلطة مفتش أكاديمي آت من تونس سوى علامات ظاهرة لحيرة وتردد سياسة تعليمية ما زالت في طور التكون. بالنسبة لحكم الوصاية الفرنسي، كانت وظيفة المدارس إعداد المترجمين والمساعدين من «المستعمَرين» التي كانت تحتاج إليهم الإدارة في المغرب «المُجَدّد». كانت تتطلب الإدارة كما التجارة موظفين «متنورين»، يحظون بثقة واحترام السكان ويملكون الكفاءات والمعلومات اللازمة للتعاون مع التقنيين والإداريين الفرنسيين». وفي هذا السياق أعلن ليوتي Lyautey في فاس في تشرين الأول/أكتوبر عام ١٩١٦، «سأعمل أنا والعاملين معي، على الحفاظ على الطبقات والمراتب الاجتماعية واحترامهما، وعلى إبقاء الأشياء والأشخاص في أماكنها القديمة، وعلى أن تظل القيادة للزعماء الحاليين والطاعة للآخرين.» يندرج موقف ليوتي Lyautey هذا في إطار المنطق الذي حدِّد في «الأسس السياسية لتعليم المستعمَرين» في الرباط أواخر تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٥. في هذه الوثيقة حُددت الأهداف المناطة بمؤسسات التعليم الثانوي، التي كان إنشاؤها مرغوباً به والتي سميت في بادئ الأمر تكميليات المغرب العربية، ثم تحولت تسميتها إلى تكميليات المغرب المسلمة، والتي تأسست رسميا في الرباط وفي فاس بظهير (مرسوم سلطاني في المغرب) صدر في السابع عشر من شباط/ فبراير ١٩١٦. كانت هذه التكميليات تتقاضى أقساطاً مدرسية وكانت مخصصة لأولاد النخبة من المستعمَرين.

وقد قام ظهير آخر صادر في ١٨ آذار/ مارس ١٩١٦ يحدد صفة وتنظيم مدارس المستعمَرين الابتدائية، بتكريس التمييز العنصري والاجتماعي الرائج منذ الظهور الخجول للتعليم الحديث في الغرب: «مدارس أبناء الأعيان» المخصصة للنخبة المسلمة و«المدارس الشعبية» المخصصة للطبقات الشعبية. وبقي الأمر على حاله حتى صدور مذكرة ٣٠ نيسان ١٩٢٠ والقرار الوزاري الصادر في ٤ أيلول ١٩٢٠ لكي تظهر ملامح لسياسة مدرسية مندمجة بنظام سياسة المستعمَرين.

لم تكن مهمة مدرسة الاستعمار المحافظة جداً بمفهومها، «تطبيق نفس القوانين التربوية على جميع التلاميذ، وإدخال الديمقراطية إلى مجتمع نجهل أغواره، وتربية تلاميذنا تطلعا لمجتمع مستقبلي مثالي لا يكون النجاح فيه إلا للجدارة والاستحقاق». بل بالعكس كان على مهمتها أن تنحصر «في أخذ الناس والأشياء كما هم وتحسينهم من خلال تطور بطيء».

كانت تنطبق عقيدة التطور البطيء والحفاظ على المؤسسات التقليدية على التعليم الثانوي أيضا المطلوب منه «أن يحضر الشباب المغربي للحصول على الثقافة العامة التي تعدهم للاهتمام بكل مظاهر الحياة الحديثة دون إبعادهم عن تقاليدهم». تعتمد مذكرة ٣٠ آب أغسطس ١٩٢٠ التي تحدد مخطط دراسة المستعمَرين ومناهج التعليم المطبقة عليهم، تصنيفا لمؤسسات التعليم الإسلامية شبيه بالتصنيف الموضوع لأفريقيا الغربية الفرنسية: مدارس الأرياف، ومدارس الأقاليم، ومدارس المدن، ومدارس الأعيان.

تتوافق النظرية الملتوسية Malthusianisme التعليمية التي انتهجها حكم الوصاية مع تفكير الأجواء المعادية للمستعمَرين، والتي تعتبر أن المقصد العملي من التعليم، الشعور بثبات الفئات الاجتماعية والاقتصادية واستقرارها، والرغبة في احترام التراتبية الاجتماعية من شأنها أن تضمن الحفاظ على الهيكليات التقليدية والاستقرار السياسي. كان التعليم وهو «سلاح التغيير الحذِر المعيار» وفقا لريفي Rivet، ينتقي داخل كل فئة اقتصادية واجتماعية أفضل طلابها فكانت مدرسة الريف تتيح الدخول إلى مدرسة الإقليم وكانت مدرسة المدينة توجه طلابها نحو مدارس رئيسية أو مهنية أو تجارية وكانت المدارس الإسلامية تشكل المنفذ الطبيعي إلى مدارس أبناء الأعيان. فكان على مختلف الفئات الاقتصادية أن تتطور من دون أن يمس ذلك تراتبيتها: «يجب أن يعود الفلاح الصغير عند خروجه من المدرسة إلى

الأرض ويجب أن يصبح ابن العامل في المدينة عاملا وابن التاجر تاجرا وابن الموظف موظفا. يجب أن يحظى الولد التابع لمحيط اجتماعي محدد بتعليم ينسجم مع هذا المحيط ويبقيه فيه ويجعله أكثر قدرة على تأدية دوره الاجتماعي مهما كان هذا الدور متواضعا».

خلال قرون احتل الريف المغربي موقع الصدارة. وظهرت خلال هذه الفترة نخب مارست نفوذا مهيمنا في المناطق الجبلية والصحراوية. وجاء حكم الوصاية الفرنسي داعما لأهم الزعماء المتواجدين في جبال الأطلس الغربي. وهكذا وبعد انخراط زعماء كبار من جبال الأطلس ومنهم الغلاوي El-Glaoui والغندافي El-Goundafi والمتوغي El-Mtouggui في النظام الجديد ازدادت قوة زعامتهم أكثر من أي وقت مضى. أما في مناطق أخرى فقد قام زعماء آخرون يرفضون الخضوع لحكم الوصاية، بصد الفرنسيين والإسبانيين وأشهرهم مها Moha وحمو الزيني Hammou al-Zayani وريسوني Raisouni وزايد Zaid وحمد Hamad.

نمت بشكل سريع إلى جانب الوطنيين حتى عام ١٩٣٩ نخب المعرفة الحديثة والمتمثلة بجمعيات خريجي قدامى المدارس الإسلامية في فاس والرباط. وشاركوا في تحول البلاد وناضل العديد منهم ابتداء من عام ١٩٤٤ في صفوف الاستقلال.

في هذه الأثناء كانت تتشكل نخبة بربرية في تكميلية أزرو البربرية وفي مدرسة دار البيضة الحربية في مكناس. هذه النخبة كانت مكونة خاصة من شباب بربر من الأطلس المتوسط ينتمون إلى عائلات أعيان القبائل المختلفة. وكان المستعمر يظهر اهتماما خاصا بهذه «المحميات من الهمج البيض» الحلفاء الأكيدين لهم كما يظنون لأنهم مختلفون عن العربي المتواجد في السهول وحتى عن المسلم عامة. ولأنه يمكن «استرادادهم» استردهم المستعمر رسميا لصالح السلطان من خلال «تهدئتهم». ألم يتجه أولادهم بطيبة خاطر نحو الجيش وهو المجموعة الاجتماعية التي لعبت في بعض المجتمعات النامية دورا أهم من دور المثقفين والزعماء السياسيين؟ كتاب بوتومور Bottomore «النخب والمجتمع» وبالأخص الفصل المخصص منه للنخب في البلاد النامية مهم جدا في دراستنا. في البلدان التي حازت حديثا على استقلالها، «أولئك الذين يملكون القوة العسكرية يتبوأون مناصب من الدرجة الأولى لها لتقرير مصير الأمة».

١. تاريخ تكميلية أزرو البربرية

تقرر في آب ١٩١٤ إنشاء ثلاث مدارس ابتدائية في منطقتي بني متر وبني غلد البربريتين. كانت تمتلك المواقع العسكرية عدداً من عوامل جذب السكان البربر في المناطق المجاورة: المكتب العسكري للإدارة، ومستوصف المستَعمَرين والسوق.

أ. من المدرسة الفرنسية ـ البربرية إلى تكميلية أزرو البربرية

كان من شأن إعادة تنظيم وتنمية شبكة المدارس في بلاد البربر أن تمد المحاكم العرفية ومحاكم الاستئناف بالموظفين الذين تحتاج إليهم. كان رئيس مصلحة التعليم الإسلامي يقترح في آن معاً وجوداً مدرسياً مركزاً في بعض المناطق المحددة يترجم بشبكة كثيفة قدر المستطاع من المدارس، ويؤسس مدرسة إقليمية ذات مستوى أرفع مهيئة لاستقبال أبناء الأعيان أو زعماء القبائل وأفضل طلاب مدارس القرى، مشكلاً بذلك هيكلية النظام. تحولت فيما بعد مدرسة أزرو البربرية الإقليمية إلى تكميلية أزرو البربرية.

ب. اختيار أزرو

طولب بإنشاء هذه المؤسسة عدة مرات ولا سيما من قبل الجنرال فريدنبرغ Général Freydenberg قائد منطقة مكناس فقد كان يعتبرها ضرورية لإتاحة الفرصة أمام أبناء الأعيان البربر للحصول على تعليم أرفع من الذي تقدمه المدارس البربرية، ولتمكين بعضهم من الدخول إلى مدرسة دار البيضاء العسكرية في مكناس. وتبين للجنرال فريدنبرغ Général Freydenberg أن اختيار قرية أزرو يفرض نفسه بسبب موقعها في المنطقة البربرية، وسهولة التواصل مع مكناس «العاصمة البربرية». وكُلِّف السيد رو Roux أستاذ اللغة العربية في مدرسة مكناس الثانوية، بإدارة مدرسة أزرو الإقليمية.

كان للمدرسة منذ انطلاقتها طابعان. كانت، في الوقت نفسه، مدرسة ابتدائية لتلامذة مركز أزرو، ومدرسة إقليمية تحتوي على قسم داخلي. ولم تتحول إلى تكميلية إلا في العام ١٩٢٩ بإضافة صفوف تكميلية إلى الصفوف الابتدائية. وقد أتاح التحضير للشهادة التعليمية الثانوية الإسلامية إنشاء شعبة لتدريب المعلمين الابتدائيين البربر. في البداية تم توظيف بعض المدرسين من القبائل للتدريس في المدارس

البربرية. كانت شعبة تدريب المعلمين التي أُنشئت في أزرو تستقبل التلامذة الحائزين على شهادة التعليم الثانوي والراغبين بالدخول في سلك التعليم. وبعد إضافة شعبة حِرَفية وشعبة زراعية مع ما يقارب مئتي تلميذ، ستون منهم في القسم الداخلي، بدأت تأخذ تكميلية أزرو أهمية كبرى، وكان اسمها قد اشتهر وبجدارة عندما تركها مؤسسها عام ١٩٣٥.

ج. هدف التكميلية

حددت التكميلية لنفسها ثلاثة أهداف: نشر اللغة الفرنسية في أزرو ومنطقتها؛ تعليم اللغة الفرنسية لعدد من أبناء القادة والأعيان في الأطلس المتوسط، وتدريبهم على الأساليب الفرنسية؛ تعليم بعض الشباب ليكونوا مخولين تسلم وظائف صغيرة مختلفة يحتاج إليها المستعمر في المنطقة البربرية. كانت أداةً لخرق الجبال البربرية سياسيا. ركزت مديرية الشؤون السياسية التي كان لها سلطة عليها، على الأهمية السياسية لتدريب أبناء الأعيان البربر. إن هذا الهدف المعلن بوضوح يفسر إنشاءها في قلب المنطقة البربرية في الأطلس الداخلي.

د. عدد التلاميذ في التكميلية

ارتبط عدد تلاميذ التكميلية بشكل وثيق بالمدير. فكان عليه أن يسهر على تطمين الأهالي، والقضاء على الأفكار المسبقة بشأن المؤسسة. بالإضافة إلى هذه الصفات كان عليه أن يتمتع بصفة «المتلاعب بالإحصاءات» لكي يحصل على تمثيل طلابي من أبناء الأعيان مع عدد أضيف للزينة وقيس بمكر لطلاب ينتمون إلى الفئات المحرومة انتزعوا بالقوة من عائلاتهم لملء المدارس البربرية الصغيرة. كان على المدير أيضا أن يلبي مطالب الإدارات المحلية التي تطلب موظفين بأعداد تفوق ما تستطيع تلبيته تكميلية أزرو. من ناحية أخرى كان دخول تلاميذ جدد إلى التكميلية يحدث بوتيرة أبطأ من المنتظر، مما كان يجبر المدارس البربرية على إبقاء تلامذتها في الصف نفسه وقتا أطول، قد يصل أحياناً إلى أربع أو حتى خمس سنوات في حين أن الحلقة الدراسية الرسمية كانت مدتها سنتين. وقد تفاوت عدد التلامذة المنتسبين إلى الكلية بين ٢٣٠ و٢٤٥ تلميذاً مقسمين بين ١٥٠ و١٧٠ تلميذاً خارجياً من أزرو والمناطق المجاورة وبين ٧٠ و٧٥ تلميذاً داخلياً من خارج أزرو و«نصف هذا العدد مكون من أولاد النخبة الريفية».

هـ. الصفوف

إتمام خمس صفوف ابتدائية توصل إلى شهادة الدروس الابتدائية الإسلامية. يتبعهم صف تحضيري وثلاثة صفوف عليا تقود إلى شهادة الدروس الثانوية الإسلامية. كانت أقلية من التلاميذ مكونة خاصة من تلاميذ القسم الداخلي تتقدم إلى شهادة الدروس الابتدائية. بعض الناجحين في هذا الامتحان كانوا يتابعون دراستهم حتى السنة الثالثة العليا فيجازون بشهادة الدراسة الثانوية الإسلامية وتكون هذه الشهادة خاتمة مسارهم التعليمي.

بالإضافة إلى ذلك تضم التكميلية ثلاثة أقسام مهنية: قسم تربوي يحضر مدرسين بربر؛ قسم زراعي يحضر للزراعة وتربية المواشي في مزرعة مساحتها ١٥ هكتاراً؛ وقسم حرفي يحضر لمهن النجارة والحدادة؛ وقسم قانوني يحضر لأمانة المحاكم العرفية.

و. فرص العمل التي تؤمنها التكميلية

كان الهدف في بادئ الأمر إعداد أمناء «للجمعة» (المجلس المحلي)، لكنها أعدت أيضا مترجمين ليحلوا محل الموظفين الناطقين بالعربية الذين توظفهم الإدارة الفرنسية في المناطق البربرية. وكان هذا خياراً سياسياً متعمداً يهدف إلى عزل الجبل البربري بإبعاد الموظفين الناطقين باللغة العربية كلهم. وبنفس التصور أدخل حوالى عام ١٩٣٥ تدريس العلوم الزراعية والحقوق وكان الهدف منه إعداد قادة ومعلمين بربر للمستقبل. قدم الفرنسيون بتوفير التعليم الثانوي في أزرو تنازلا هاما، أملاه بشكل خاص همهم بتجنب إرسال النخبة البربرية إلى المدارس الثانوية المسلمة في الرباط وفاس.

ز. الطابع الخاص لتكميلية أزرو البربرية

ليست تكميلية أزرو البربرية كسواها من المدارس التكميلية. قانونها متميز مقارنة مع التكميليات المسلمة الأخرى وبرامجها مختلفة عن التكميليات الأخرى التابعة لإدارة التعليم الرسمي، فهي تنعم باستقلالية كبيرة تخولها أن تكَيِّف برامجها للحاجات المحلية. تدريس اللغة العربية والثقافة العربية-المسلمة غائبان من برامج المرحلة الابتدائية لا بل ممنوعان. فقط الصفوف التكميلية تحظى بتدريس بدائي للغة العربية الفصحى ابتداء من عام ١٩٣١.

ح. المواجهة الثقافية

تمثل المدرسة في النظام الاستعماري إحدى نقاط الإتصال الأساسية بين المجتمع المستَعمِر والمجتمع المستَعمَر ومهمتها خلق «نخبة متطورة» تكون صلة الوصل بين الإدارة الاستعمارية والشعوب الأصيلة. ومن مهمات المدرسة التي يتم التركيز عليها «طمس الثقافة الأصلية» التي تؤدي إلى «الدمج في المجتمع عن طريق التبعية». فيأخذ «المتطورون» الذين أفرزهم هذا النظام التعليمي إلى تمجيد ثقافة المستعمر وإلى التقليل من شأن ثقافتهم. وتُظْهِر أعمال كولونا Colonna وجبري Jabri وسريبات Sraïebat ومروني Merrouni كيف أن نظام التعليم الاستعماري يميل إلى دمج الأطفال في المجتمع عن طريق التبعية. ولكن التعليم الاستعماري جاء ليفرض نفسه على نظام تعليمي آخر موجود وله في بعض الأحيان تأثير قوي على المجتمع. فأضحت المواجهة بين نظامي تعليم هما ركنان وأداتان ثقافيتان متعارضتان، لا مفر منها.

وخلافا للتوقعات كلها، كان بربر الأطلس الأوسط من أشد المطالبين بتعليم قرآني. تسبب موقف كهذا بتكذيب جارح للادعاءات الزاعمة بانعدام الحس الديني العميق لدى البربر. وأعرب أولياء الطلبة في أزرو منذ عام ١٩٢٨ و١٩٢٩ عن دهشتهم لعدم وجود معلم قرآن في المدرسة. ويذكر بعض الضباط في تقارير رسمية شكاوى عديدة صادرة من بعض الأوساط «الزعين» Zaïan التي أخذت على مدرسة أزرو الإقليمية عدم تدريسها الدين. ولأن جهل اللغة العربية الفصحى كان معيباً طالب الأهالي بتدريسه. وطالب بشدة أهالي الطلاب العرب والبربر على السواء في خنيفرة Khénifra عام ١٩٣٨ بإنشاء صف قرآني. وكان ٥٦ تلميذاً من أصل ٣٠٠ أي ١٨,٦٦% يذهبون إلى المدارس القرآنية في القرى و١٢ آخرين كلهم من البرابرة ومن الأعيان لا يلتحقون بالمدرسة البربرية إلا بعد أن يكونوا قد أنهوا دراسة القرآن. وفي عام ١٩٣٨ طالب أهالي تلامذة مدرسة ميدالت Midelt البربرية بتعيين فقيه وكان ٢٢ تلميذاً أي ٢٨% من التلاميذ يتابعون دروس الجامع خارج دوام المدرسة. فكان الأهل بذلك يعتمدون استراتيجية ثنائية ويفرضون الالتحاق المزدوج بالمدرسة الفرنسية البربرية والمدرسة القرآنية. بل أكثر من ذلك، ذكر مدير المدرسة البربرية أن التعليم الاستعماري بنظر هذه الشعوب لا يوازي أهمية التعليم القرآني وحتى أن البعض يعتبره ثانوياً.

حاولت المجتمعات المستعمَرة التي اخترقتها من كل صوب الحضارات المستعمِرة أن تصمد بوجه التمدين المفروض من الخارج. وتحت تأثير ضغوطات المجتمع المستعمِر شهدت هذه الحضارات انهيار هيكلياتها التقليدية، وتفككا اجتماعيا واقتلاعاً ثقافياً. حاول بورديو Bourdieu، فانو Fanon وميمي Memmi تفسير آليات هذه العملية ونتائجها.

إحدى خصائص هذه العملية أنها تتم في جو من النزاع الذي يشكل الصفة المهيمنة للعلاقات الاجتماعية في النظام الاستعماري. ويدل التاريخ أن المجتمعات المستعمَرة قاومت دائما التحولات التي يفرضها المستعمر. وقد سيطر العنف المادي و«حرب الإشارات» في كل مكان على العلاقات بين المستعمَر والمستعمِر. إن المقاومة العسكرية واللجوء إلى القيم الأصيلة وانتظار المخلص وحركات الشباب «المتطور» والتنظيم الحزبي، الخ، كلها مظاهر لرفض المجتمعات المستعمَرة النظام الاستعماري.

في هذه المواجهة، يدافع المستعمَر عن انتمائه لمجموعة، ولثقافة، ولحضارة. يواجهه في المقابل، الضباط المسؤولون عن سير السياسة البربرية ووسيلتها المدرسة الفرنسية البربرية والتكميلية البربرية بالأخص والذين يطبقون عن غير اقتناع تعليمات متضاربة ومتناقضة. فمن جهة عليهم العمل على أن يبقى «الإخلاص البربري الجميل» كاملاً وفقاً لمقولة برك Berque، تطلعاً لإنشاء «بربرستان» تكون قاعدة الحلم الاستعماري «لوطن أكثر حداثة من مناطق الحوض» والذي تأسف برك للإخفاق في بنائه وذلك في مذكرة عن سياسة فرنسا في المغرب، حيث كان يطالب باعتماد طارئ لنهج سياسي جديد في المغرب. وبالعكس من جهة أخرى كانت سلطات المراقبة تبذل ما بوسعها لهدم أسس هذه السياسة البربرية نفسها. لم يكن فقط الدفاع عن قضية التكميلية لدى القادة أو الأعيان من الأولياء ضعيفاً، بل برهنت هذه السلطات عن جهل أيضاً بالسياسة البربرية عندما قامت بتشجيع تعريب الجبل البربري بفرضها على الشباب معرفة أوسع باللغة العربية كشرط لقبولهم في تكميلية أزرو البربرية. وتلبية لطلبها تم رفع عدد ساعات تعليم اللغة العربية إلى ساعتين في السنتين العليا الأولى والثانية وبداية دراستها المعمقة في السنوات العليا. ووصل الغباء السياسي إلى أوجه عندما تم تعيين متخرجين من تكميلية أزرو أعدوا في الأصل للعمل كمترجمين، أمناء محاكم عرفية في مناطق تتطلب معرفة اللغة العربية الفصحى كمنطقة سوس مثلا.

وفي هذا السياق تم اتخاذ قرار إضافة فقيه يعلم اللغة العربية في المدارس الفرنسية البربرية. ولكن مدير التكميلية لم يؤيد هذا القرار مؤكداً «أن عدداً منهم يتسلل ويؤثر بشكل كبير على البربر مستغلين سذاجتهم ويعملون إلى جانبهم باتجاه لا ينفع النفوذ الفرنسي ولا مصلحة الشعوب المتواجدين وسطها.»

لم يقم بربر المغرب بأي وقت كان بأعمال تبرر الآمال التي كانت مبنية عليهم. ولم تكن صورة البربري التي كان يحاول فرضها زعماء القبائل وأعيانهم لدى أهل السلطة إلا من نسج الخيال. فالغضب نفسه كان متصاعداً في الأرياف- البربرية كغيرها- ضد نظام لا تترجم أعماله إلا باقتصاص مرتفع من الأموال والممتلكات، كما كان متصاعداً أيضاً عند الشباب «المتطور» في المدن. وهذه الحالة سهلت تسلل الوطنيين، بخجل لكن بثقة، إلى أزرو. وقد استعمل الأساتذة المرشدون والذين يحبهم تلامذتهم حباً شديداً، في ذروة الإعجاب بهم، نفوذهم لتحويلهم عن شعبة إعداد المعلمين وحثهم على العكس على متابعة دروسهم في تكميلية مسلمة تهيىء للبكالوريا. وهكذا بعد أن خُطِّط للتعليم أن يكون عامل دمج أصبح عامل وعي وإعادة نظر في النظام القائم.

وقد أعلن عبد الحميد زموري متحدثاً باسم تلامذة متوسطة أزرو:

«الطلاب مستاؤون من البرامج الجديدة. فهم لا يتلقون إلا دروساً في الرياضة. يجب أن يتعلموا اللغة العربية بشكل خاص لأن تعلم اللغة الفرنسية لا يكفي. عندما يتقدم التلامذة إلى مباريات تضم مسابقات في اللغة العربية يرسبون بسب عدم إعدادهم الكافي في اللغة العربية. في جميع التكميليات المسلمة يصل البرنامج حتى صف البكالوريا فلماذا لا ينطبق هذا النظام على تكميلية أزرو. إنه إجحاف بحقنا ولصالح الوطنيين الفاسيين. ماذا تخشى الحكومة للحد من برنامجنا؟»

ساند الأهالي والقادة خاصة بشكل غير مباشر هذا التيار الذي نشأ في التكميلية. طالبوا بإصرار بتسجيل أولادهم في تكميلية الرباط المسلمة. وطالب بعضهم نقل منحة أبنائهم إلى متوسطة فاس المسلمة، المعقل المكروه للإسلام المتزمت وللوطنية وللعروبة. وقد فسر مدير المتوسطة هذه الظاهرة بأنها نوع من احتجاج الأهالي على «علمانية» التكميلية البربرية. ومن بين القادة المعنيين نذكر على سبيل المثال القائد علال من القابليين من خميسات caïd Allal des Kabliyines de Khemisset

والقائد قاسم من تيفلات caïd Kacem de Tiflet طالبوا عام ١٩٤٢ بقبول أبنائهم في تكميلية مولاي يوسف في الرباط.

حيادية التعليم التي أكدت عليها فاني كولونا Fanny Colonna في حديثها عن التعليم الاستعماري في الجزائر والذي لاحظناه أيضاً في «تكميلية صدّيقي» حيث نجحت بسبب التعليم باللغتين الفرنسية والعربية، لم يتم تطبيقها في تكميلية أزرو البربرية. هذه العملية المتعمدة أصبحت الحجة الرئيسية لتجريد الشباب المتطور من كلية أزرو من هويته الوطنية.

ويمكننا البحث عن دوافع هذه الحركة الاحتجاجية في العلاقات التي أخذت تحاك بين شباب المدن والشباب المتعلم في الجبال البربرية. ومن جهة أخرى، فإن القرب الجغرافي من محطة إفران ونمو المصايف الجبلية والعلاقات التي عقدها القصر الملكي منذ عام ١٩٣٩ مع الزعماء والأعيان في جبال الأطلس المتوسطة أزالت عزلة جبال البربر. واستفاد محمد الخامس من فرصة وجوده للراحة في إفران وهي محطة تزلج تبعد عشرين كيلومتراً عن أزرو ليذهب إلى أزرو ويدخل تكميليتها متنكراً في الرابع عشر من كانون الثاني ١٩٤٢. وتظهر الأسئلة المطروحة والإصرار الذي أبداه الملك لمعرفة الأوقات المخصصة للغة العربية في برنامج التلامذة، وإذا كان الأستاذ المكلف بهذه المادة فرنسياً أم عربياً، وأين يقيم التلامذة صلاتهم تعطي براهين جديدة على الاهتمام الذي أبداه الملك للقضاء على الطابع الخاص للتعليم في البلاد البربرية وحرصه على تحقيق وحدة المغرب السياسية والروحية.

٢. تلامذة أزرو في المجال السياسي

أدى العمل الوطني في كانون الأول إلى إنشاء حزب الاستقلال الذي يتجلى ظهوره الرسمي الأول في ١١ كانون الثاني ١٩٤٤ في تقديم «بيان الاستقلال». وبين الـ ٥٨ الموقعين على هذا البيان نجد ثلاثة من قدامى مدرسة أزرو البربرية: الرئيس وأمين عام وأمين صندوق جمعية قدامى تلاميذ أزرو. وتم توقيف رئيس الجمعية.

ونجد بين «الشباب المتطورين» من تكميلية مولاي يوسف قدامى من مدرسة أزرو، وهم يذكرون مراحل إعداد هذه التظاهرة وتنظيمها من قبل القدامى ولا سيما عبد الرحمن اليوسفي التلميذ عندئذ في الصف الأول، والذي سيصبح فيما بعد رئيس وزراء الحسن الثاني.

ويحدث أحياناً أن فواصل صغيرة في حياة الإنسان تخرجه إلى العلن بالرغم عنه. وكان من هؤلاء محمد شفيق وقد احتفظ طالب الصف الثانوي الأول بعلم مغربي وزعه الفرنسيون لتلامذة مدرسة أزرو الصغار بمناسبة مرور السلطان. ولحظة انطلاقة التظاهرة أخرج العلم وتبع التلاميذ بعفوية الشعار الوطني. وهكذا وجد محمد شفيق نفسه على رأس تظاهرة سياسية ذات حجم وطني وسيصبح مرفوضاً من جميع المؤسسات التربوية وممنوع توظيفه في الإدارات الرسمية كلها. وسيصيب الإجراء نفسه مكي وهو خريج قديم آخر من مدرسة أزرو والذي قُبل بعد ألف صعوبة في مدرسة مولاي يوسف في الرباط بالإضافة إلى ذلك وضع في المراقبة الجبرية في أزرو قبل أن يطرد منها على الفور ويوضع في الإقامة الجبرية في مكناس. وفي ١٥ شباط شل إضراب عام مدرسة أزرو.

أ. إضراب شباط ١٩٤٤

إن إضراب التلاميذ الذي هيأه بسرية تامة السي حامو بن محمد خريج سابق، أضحى مدرساً في مدرسة أزرو، دمغ هذه التكميلية إلى الأبد. بعد دراسة الأمر صمموا على إعلان الإضراب ليعبروا عن تضامنهم مع رفاقهم ويؤكدوا تمنياتهم بأن يروا بلادهم قد حصلت على الاستقلال. إن أبناء القادة المنعوتين بالمتمردين والعصاة عبروا بهذا الإضراب للمرة الأولى عن رفضهم الاحتلال العسكري والاستقلال والتفرقة. وبرأي كثير من الخريجين أو من قدامى المدرسة فإن هذا العصر القاتم والمجيد من تاريخ مدرسة أزرو طبع هذا الجيل بنضوج مبكر. لقد اجتمعوا في غابة لمناسبة نزهة تحت بصر نظارهم المتواطئ. بعدئذ حملوا رسالة في شباط إلى غابريال جرمان Gabriel Germain مدير المدرسة ونحن ننقلها بأمانة وبكل براءتها في الشكل والمحتوى.

من تلامذة مدرسة أزرو إلى السيد مدير تكميلية أزرو

سيدي المدير:

إن طلاب مدرسة أزرو المجتمعين في دورة استثنائية على خطى رفاقهم في المؤسسات التعليمية الأخرى في المدن، قرروا وبالإجماع إعلان الإضراب كي يسهموا في المعركة التي تقود الشعب المغربي لنيل حقوقه السياسية والاقتصادية

والاجتماعية. نحن نحب فرنسا لأنه البلد الذي عرفنا وجعلنا نقدر تقاليد ثورة ١٧٨٩ التي هي تقاليدها. ولكن أيضاً نحب المغرب لأنه البلد الذي رأينا فيه النور وسنكون فخورين عند رؤيته في صف القوة الحرة، هؤلاء الذين يدينون له بشيء من الحرية.

لتحيا فرنسا الحرة.

ليحيا المغرب الحر.

ليحيا جلالة السلطان وليحفظه الله ولينصره.

هذه الرسالة ولأول وهلة تثير بعض التعليقات. فمحررو الرسالة حذفوا عمداً صفة «البربرية» من التسمية الرسمية للكلية. وفي عنوان الرسالة كان عليهم أن يعرفوا عن أنفسهم كتلامذة تكميلية أرزو البربرية الذين يتوجهون إلى مدير مدرسة أزرو. لكنهم على العكس رفضوا أن يأخذوا على عاتقهم تسمية ذات صبغة استعمارية في نظرهم. استبعدوا مفهوم البربرية في هذا النطاق المحدد. بربر نعم حتى أطراف أظافرهم. ولكن ليس بالمفهوم الاستعماري للأسطورة البربرية الذي يرفضونها. هذا الإضراب هو أيضا إدانة للسياسة الاستعمارية التي تعتمد التقسيم العرقي والسياسة التصنيفية الذي يضع «الناطقين بالعربية في بلد مخزن والناطقين بالعربية في بلد سيبا». بهذا الإضراب يستأنف الأبناء على عاتقهم معركة آبائهم الثوار ضد الاحتلال وضد السياسة الظهير البربري الصادر في ١٦ أيار ١٩٣٠.

تعبر المفردات عن تقارب الروابط بين هذا النشء الجديد والحركة الوطنية وتكشف وعن إعادة تبنيهم لقيم الجمهورية الجديدة ذات الصبغة الشمولية التي اكتسبت في التكميلية، ولقيم الثورة الفرنسية. الإتيان الواضح على ذكر ثورة ١٧٨٩ هو الدليل الأوضح عن هؤلاء الشبان البربر. مشبعون بالأفكار الفرنسية في الحرية والمساواة يطالبون بحق لا يسقط مع مرور الزمن وهو حق الهوية الوطنية المعترف بها. ونكتشف بالفعل أنه تقريباً في جميع البلاد المستعمرة سابقاً يأتي الاحتجاج على النظام القائم من قبل وسطاء تم إعدادهم في مدارس الاستعمار بعملية أصبحت مألوفة. ونتوقف أيضاً عند تضارب مشاعر هؤلاء الشباب البربر بين بلد - فرنسا - علمهم التعرف وتقدير تقاليد ثورة ١٧٨٩ وبين بلد آخر - المغرب - رأوا فيه النور ويفتخرون لوجوده من مصاف البلدان المستقلة.

ب. سجن وطرد وعسكرة

احتل الجيش التكميلية ثم أغلقها سنة كاملة. تم توقيف تلاميذ صفوف الكبار وتم زجهم في السجن. فحبس تلاميذ تتراوح أعمارهم بين أربعة عشر وخمسة عشر وستة عشر سنة في زنزانات سوداء ورطبة في أشد أيام الشتاء القاسي في هذه المنطقة. حتى أن البعض منهم أجبر على الإنتقال من سجن إلى سجن سيراً على الأقدام بمرافقة خيّال وتحت مراقبته.

في حين كان التلاميذ يمضون مدة عقوبتهم المتراوحة بين ٨ أشهر وسنة في السجن استدعى المفوض السامي في ٧ تموز ١٩٤٤ ببونيفاس Bonniface، والكولونيل دوتفيل colonel Dhauteville، وباي Paye وروني ماهو René Maheu من دار المعلمين العليا والكولونيل موندي colonel Mondet للتباحث بموضوع أزرو. فأعادوا فتح التكميلية في تشرين الأول ١٩٤٤ وسلموا إدارتها إلى عسكري برتبة عقيد لتخويف التلامذة. تم إبعاد الذين يريدون إكمال دروسهم؛ وتم توجيه الذين سمح لهم بالمتابعة من جديد نحو مهن وضيعة، لم يقبل التلاميذ بهذا الوضع وذهب بعضهم لمتابعة دروسه في مدارس أخرى.

ج. الكولونيل موندي le colonel Mondet، مدير التكميلية

يصفه القدامى بأنه مصاب بداء الحركة الدائمة، يراقب كل تحركات التلاميذ قامعاً كل من امتلك وثائق بالعربية، ومانعاً استعمال لفظة «بن» التي توحي بأنها عربية، لصالح لفظة «أو» البربرية فقط. وقد استخدمت بعض العائلات العربية لفظة «أو» ليتمكنوا من تسجيل أبنائهم في التكميلية البربرية متحايلين على القانون الذي يمنعهم من ذلك. ومن صفات موندي الأخرى التي أشار إليها قدامى أزرو فهي أنه خلافاً للمدراء الآخرين لم يكن يجلس في مكتبه إلا نادراً؛ إذ إنه كان يقضي معظم أوقاته في مراقبة ما يفعل تلامذته وما يقرأون. والويل لمن يجد بحوزته كتاباً أو وثيقةً باللغة العربية.

لم يكن نمط لليوتي Lyautey التربوي، الذي كان يمتلك حرية التصرف في ميدان خال، يشجع إدخال النظام التربوي الحديث ولكنه كان يميل إلى أفكار الطبقة الحاكمة التي كان يقاسمها خوفها من أن تنتج المدرسة نخبة مصطنعة على صورة نخبة «الشباب التركي» الذين لا ينفعون لشيء والمستعدين لأي شيء. وهو لا يخفي

هذا الميل لا سيما عندما قرر التخلي عن أكثر مساعديه تشرباً لأفكار الشمولية الجمهورية الجديدة غوستاق لوت Gustave Loth مدير التعليم العام الآتي من تونس وأيضاً عن بيار إيماريجون Pierre Immargeaon مدير تكميلية فاس المسلمة، الذي أبعد إلى وجدا.

ولم تقم اللجنة المجتمعة في أزرو في ٢٦ حزيران ١٩٤٢ للتباحث في هذه المشكلة الشائكة إلا بالتذكير بمبادئ المدرسة الفرنسية البربرية. وبقيت مشكلة سياسية دقيقة جداً معلقة بقرار سياسي وهي فتح ثغرة تمكن بعض المتفوقين ومتابعة دراستهم الثانوية حتى البكالوريا إما في تكميلية الرباط المسلمة أو في القسم الجديد من أزرو.

وبالرغم من علمهم بأنهم أمام إجراء شديد الحساسية لا يطبق ألا بحذر كبير إلا أنهم تساءلوا إن لم يكن من المجدي فتح باب الترشيح للوظائف المخصصة للمستعمَرين أمام شباب من غير المتحدرين من الطبقة البورجوازية العربية. وكما نرى فإن العقيدة الاستعمارية في ما يخص التعليم لا تتطور كثيراً بل تبقى متجذرة بشكل جوهري في نظرة ليوتي للمجتمع المغربي: إعداد نخبة ريفية لتواجه بثقلها عند الحاجة ثقل المطالب الوطنية للمخزن والنخبة في المدن.

لم يكن الشعور بالكبت الشخصي غائبا عن داعمي السياسة البربرية الذين يتوقعون تسوية حتمية تؤدي إلى تعريب مشترك. هذا السخاء المفاجئ اقترن بالرغبة غير المعلنة بتأخير الاستحقاق الحاسم. تم التساؤل بمرارة عن ضرورة التمسك الصارم بمبادئ العمل المدرسي في المنطقة البربرية حيث أنها تابعة للـ«السياسة البربرية» المطبقة حتى الآن، أو إذا كان من المفترض تخفيف صرامة التعليم الاستعماري لردع المطالب المعبر عنها بصراحة. فنرى كم أن هذا الموضوع بالرغم من طابعه المدرسي والتعليمي يرتدي طابعاً سياسياً ذا أهمية كبرى.

د. المحاكم العرفية

في عام ١٩٤٢ تم إنشاء صف مهني يتضمن برامج دراسية في الحقوق والتبوغرافيا وقد حصل على موافقة مستشار الحكومة الشريفية في ٢٠ تشرين الأول ١٩٤٢. وقد أدت أحداث ١٩٤٢ إلى تعبئة الأساتذة وإعادة النظر في تنفيذ المشروع. تم النظر من جديد في الفكرة عام ١٩٤٤ ولكن ظلت المسألة معلقة

بسبب إضراب ٥ شباط الذي نتج عنه طرد جميع طلاب الصفوف الثانوية. كان المشروع ينص على توظيف المرشحين لوظيفة أمين محاكم عرفية من بين تلاميذ الصف الرابع تكميلي الذين يحصلون على التدريب المهني خلال سنة إضافية. وعام ١٩٤٥ تم اقتراح إنشاء صف مهني لإعداد أمناء محاكم عرفية يستقبل جميع التلامذة البربر المغربيين من الصفوف الثانوية مع وضع حد أدنى لسن الدخول هو ١٨ سنة.

اكتشفت هذه النخبة الإدارية التي تم اختيارها في البدء وفقا لمعايير معينة (الأصل الاجتماعي، أبناء الأعيان أو الزعماء التقليديين...) الدور الثانوي المراد لها أن تلعبه من قبل السلطات الاستعمارية، فأرادت أن تكون أكثر فأكثر الناطقة باسم الفئات المستعمَرة لدى السلطات متمتعة بهيبة الدور الإداري المناط بها. وربط التضامن في العمل التلاميذ القدامى والجدد، الذين أصبح هدفهم المشترك الاستمرارية في الدراسة.

لم تفهم سلطات الوصاية أن تلامذة تكميلية أزرو كانوا يتصرفون على هذا النحو ردا على سياسة تجريدهم من وطنيتهم. قبل مغادرته ببضعة أسابيع، دوّن جرمان Germain، أحد مدراء التكميلية، في تقرير له حول مشروع التعديل عام ١٩٤٤ ما يلي: «بكلمات، يجد المستاؤون أننا لم نزودهم بالعلم بما فيه الكفاية، ويعتقدون أننا نقوم بذلك عمداً لإبقاء البربر في المصاف الدنيا؛ منذ فترة يسترعي انتباههم التحركات في المدن؛ وينخرطون بها، فالتلامذة يمشون وراء قادة هذه التحركات إعجاباً بشخصيتهم، وينقادون وراء رغبة ما بالتجديد، وبتفجير الفوضى، والتضامن البربري.»

اجتازت خطة العزل العرقي والتمييز العنصري مرحلة جديدة وذلك مع مشروع تقسيم المدرسة الابتدائية إلى قسمين: مدرسة ابتدائية تحتوي على صفين، أو صف واحد بعدة شعب، مخصص لتلامذة القسم الداخلي من «العرق البربري الصافي»؛ ومدرسة ابتدائية، تحتوي على ثلاثة أو أربعة صفوف مخصصة للسكان المحليين، من الملتحقين بالقسم الخارجي، والتي لا تنتمي إلى «العرق البربري الصافي». ومن جهة أخرى، لم يعد موقع أزرو يؤمن العزلة الضرورية للتكميلية البربرية، فكان هنالك تفكير في إعادة بنائها في المناطق الداخلية للأطلس الأوسط في تيفروغين Tifroughine.

٣. التعليم والتراتبية الاجتماعية

لكن بالرغم من جميع الإجراءات المتخذة والهادفة إلى الحد من عدد الملتحقين بالتكميلية، وبالرغم من وظيفة التكميلية التي حددتها لها سلطات الاستعمار، خرجت منها نخبة مثقفة احتلت مناصب إدارية، وما لبثت أن قادت حملة الاحتجاج على السياسة الاستعمارية. وسنبادر إلى دراسة تأثير التعليم على التراتبية الاجتماعية وعلى النخب التي ظهرت من جرائه.

أ. تصنيف غير دقيق

إن أغلب تلامذة تكميلية أزرو من أصل ريفي. لذا يبدو من الصعب وضع تصنيف اجتماعي من دون معطيات رقمية قابلة لمعالجة دقيقة. المعلومات حول مهن أولياء الطلاب مبهمة غالباً، ولا تمكّن من القيام بتصنيف دقيق. إن مصطلح «الأعيان» من دون تعليق آخر لا يُستنتج منه أن أصحابه ليسوا من الميسورين مادياً. وتزداد حيرتنا عندما نجد صفة الميسور ملازمة للفقيه أو «المخازني». المعلومات حول مهن الأهل مقتضبة وغالباً ما تم الاكتفاء بتسجيل: أمين، مزارع، فلاح، ملاك، مربّي ماشية، تاجر، بائع، بقّال، بنّاء، حطّاب، خبّاز، عامل، دلاّل، فقيه، خزّاف، سكّاف، فيصعب في هذه الحالة تقييم وضع الأهل، فمالكو الأراضي والماشية هم الوحيدون الذين يملكون ثروة مادية ما. أما الحطابون والفحامون فأجورهم مرتفعة لكنهم لا يعملون في فصل الشتاء إلا قليلاً. ووضع الحرفيين والتجار ليس أفضل بكثير. أما أرباح البقال فلا تفوق أرباح الحطاب أو الفحام.

ب. مهن أهالي تلامذة تكميلية أزرو

تغطي إحصائياتنا حول مهن أهالي تلامذة تكميلية أزرو الفترة الممتدة من عام ١٩٢٩ حتى عام ١٩٥٨ المتعلقة بـ ٢٠٩٠ طالباً، أي ما يوازي مجموع ٢٧ دفعة، تم تعدادهم في سجلات التكميلية.

ستتعدل شيئاً فشيئاً، الأهمية السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمجموعات المهنية الاجتماعية المختلفة. وابتداءً من ١٩٣٠ ستظهر في التكميلية مجموعات جديد، بدعم من الجيل الأول، من المدرسين البربر. وستشهد التكميلية بين ١٩٤٠

و١٩٥٦ تغيرا ملحوظاً في التركيبة الاجتماعية لتلامذتها كما في أهدافهم. فأفواج تلامذة الطبقات الشعبية سوف يتفوّقون عدديا على تلامذة الطبقة الميسورة. في هذه الفترة ضمت المدرسة نسبة مهمة من أبناء الموظفين الصغار والبقالين والحرفيين والأجراء والمزارعين وحتى من العاطلين عن العمل والفقراء. ويُظهِر توزيع التلامذة على الطبقات الاجتماعية خللا بين نصيب الفئات الميسورة أو المتوسطة اليسر (الباشوات والقادة والشيوخ والأعيان) في القسم الداخلي من التكميلية ونصيب الفئات الفقيرة.

أصبح التعليم والثقافة العنصرين الأساسيين في التخطيط للارتقاء الاجتماعي لدى جميع الطبقات الاجتماعية، في حين أنها كانت مرفوضة قبل عام ١٩٤٠ لاعتبارها مقترنة بتخطيط لغزو أخلاقي وروحي للبلاد. ومن مجموع دفعة تشرين الأول ١٩٤٤ ١٥% من أصحاب المنح هم من أبناء القادة و٩,٤١% هم من أبناء «الخلفاء» والمشايخ و٦٥,٨٨% هم من الطبقات الشعبية أي أن ثلاثة أرباع المنح وزعت على تلاميذ الطبقات الفقيرة.

تشدد تقارير مدراء المدارس على الفقر أو حتى العوز المطبق للكثير من العائلات. وبما أنهم كانوا عاجزين عن تحمل أعباء دراسة أبنائهم، فإننا نعتقد انهم حصلوا على منح دراسية لكننا لا نستطيع التثبت من ذلك بسبب عدم توفر السجلات. ومن جهة أخرى فإن المنح المدرسية كانت تخصص عادة للمتفوقين إلا استثنائياً مما يدل أن عددها كان كبيراً.

ويتصف تاريخ تكميلية أزرو في تلك الفترة في تبدل وظيفة التكميلية واستمراريتها وفي تبدل الأصل الاجتماعي لتلاميذها واستمراريته في آن واحد. واتسم التبدل بازدياد جميع المجموعات ولاسيما المعوزة والفقيرة منها، والتي ستشكل مع الوقت ثلاثة أرباع تلاميذ كل فوج من أفواج التكميلية، لكأن ازدياد أعداد هذه المجموعات الاجتماعية في التكميلية يعكس ازديادها في المجتمع بأسره. وهكذا لم تعد تكميلية أزرو المكان التي تستمد منه الفئات الميسورة أو ذات النفوذ الاجتماعي شرعيتها، أو تؤكد عليها بل أصبحت وسيلة للصعود في مرتبات المجتمع. ولكن بالرغم من هذا الانفتاح الاجتماعي بقيت صفة الاستمرارية ملازمة للتكميلية لأنها داومت على بث الروح النخبوية لدى تلاميذها. ومنذ ذلك الحين كان سبيل الطبقات المحتاجة إلى الأمل في أن تصبح من النخبة الحاكمة هو في هذه العملية المزدوجة،

المتمثلة باكتساب المعرفة وتجميع الشهادات. إن الموظفين الصغار والعسكريين الذين يحتلون مراتب أدنى في السلم الاجتماعي ازداد تمثيلهم بشكل ملحوظ في التكميلية. وكان يتراوح مدخول هذه المجموعة الاجتماعية المهنية بين ٣٥٠ و٨٥٠ فرنكاً في حين أن المعدل كان ٦٠٠ فرنك ما شأنه أن يعيق الادخار.

وفي المرتبة الاجتماعية نفسها كانت توجد مجموعة مهنية اجتماعية أخرى هي مجموعة التجار (بمعنى الحانوتي) والحرفيين وهم أيضا ازداد تمثيلهم بشكل ملحوظ في تكميلية أزرو. ولكن على عكس الموظفين الصغار والعسكريين، لأنهم لا يتمتعون بالنفوذ الاجتماعي.

في الحقيقة، وخلافاً للموظفين الصغار والعسكريين لم يتم إعداد الحرفيين والتجار إلا لممارسة مهنتهم، ومن هنا نفهم مستواهم الفكري المحدود وعدم امتلاكهم الشهادات الأمر الذي يحرمهم من المعيار الذي أصبح ضروريا للارتقاء الاجتماعي. أغلبية أفراد هذه المجموعة يلتحقون لفترة بالمدرسة القرآنية أو بالمدرسة الابتدائية لكنهم يخرجون منها من دون أي شهادة دراسية.

وقد ارتفعت نسبة التلاميذ الآتين من هاتين المجموعتين بنسبة أكبر من نسبة التلاميذ من أبناء الأعيان، فقد ارتفعت نسبتهم إلى ٤٤,٤٤% في حين أن نسبة أولاد الأعيان لم تتخط الـ ٢٠,٩٣% وذلك في جميع الدفعات.

أجر العمال في المدن متدنٍّ، جداً أما في الأرياف فهو مزرٍ لذا أملت الطبقات المحتاجة أن تصبح من النخبة الحاكمة، من خلال العملية المزدوجة، المتمثلة باكتساب المعرفة وتجميع الشهادات. ولكن يحصل في بعض الأحيان أن تضع بعض العائلات الفقيرة أطفالها في المدرسة فتكافأ، على تضحياتها بمنح أولادها الكفوئين منحة مدرسية تخولهم الالتحاق بتكميلية أزرو.

ج. تلامذة تكميلية أزرو: من هم؟

يغطي البحث ٢٠٩٠ تلميذاً تم تعدادهم من الحائزين أو غير الحائزين على شهادة من تكميلية أزرو. وقد اعتمدنا للوصول إلى الأصل الاجتماعي للتلامذة المعلومات الموجودة في سجل تسجيل التلاميذ للوصول إلى أصلهم الاجتماعي.

لائحة ١ : أصول تلامذة أزرو الاجتماعية(*)

الفئات الاجتماعية	العدد	%	
١ . الفئات التقليدية	١٨٥	٨,٨٥	
٢ . التجار الأثرياء والميسورون	٢٨	١,٣٣	٩,٤
٣ . الكوادر المتوسطة في الإدارات العامة*	٢٤٤	١١,٦٧	١٦,٩
٤ . الحرفيون	١٥٢	٧,٧٢	
٥ . التجار الصغار	٣١٧	١٥,١٦	
٦ . أصحاب الأعمال الصغيرة	١٠٣	٤,٩٢	
٧ . العمال والموظفون اليدويون	٢٠٥	٩,٨٠	
٨ . الملاكون والمعتاشون من أملاكهم	٩٤	٤,٤٩	
٩ . المزارعون	٣٨٥	١٨,٤٢	
١٠ . الفقراء والمعوزون	٣٧٧	١٨,٠٣	
المجموع	**٢٠٩٠**	**١٠٠**	

(*) نجد في هذه الفئة جميع الموظفين المعدّين للعمل كوسطاء بين المستعمِر والمستعمَر : موظفين عاديين وصغاراً في الإدارة، مخازني، حراس الأحراش والمجاري المائية، سعاة البريد، الشرطة، الدرك، الشاويش، الممرضين، العسكريين، المعلمين، المترجمين، أمناء المحاكم العرفية، موظفي الجمارك، مرممّي الطرقات وسكك الحديد، الكتاب المنتدبين، الخيّالة.

إذا أخذنا في الإعتبار أصول التلاميذ الاجتماعية في الكلية، مع معيار المركز الاجتماعي، نجد أن ٨,٨٥% هم من الأعيان. وداخل هذه الفئة التي نعتبرها فئة تقليدية تتوزع الانتماءات كما يلي: ٥,٣١% من أبناء القادة، ١٧٢ من أبناء الخلفاء والشيوخ، ٠,٣٣% من أبناء الفقهاء، ٠,٧١% من أبناء مساعدي القادة و٠,٣٨% من أبناء القضاة، و٠,٣٨% من أبناء الأشراف.

إلى جانب هذه الفئة الخاصة يمكننا تعداد ١,٣٣% من أبناء التجار الأثرياء أو الميسورين ومن المتعهدين، ٤,٤٩% أبناء الملاكين وأصحاب الأرزاق. ونجد بين التجار الأثرياء سبعة تجار صوف، وخمسة تجار حبوب، وخمسة بائعي ماشية، وخمسة مالكي شاحنات، من بينهم أوروبيان ومتعهدان وصاحبا فنادق جميعهم أوروبيون وتاجر دواجن. أما المعتاشون من أرزاقهم فنسبة ١,٩٦% منهم من

الملاكين، و١,٨% من مربي القطعان ومستثمري الأحراش، و٠,٧١% من صغار الملاكين.

ولاستكمال لائحة ذوي الدخل المرتفع نضيف ٢٢ مزارعاً كبيراً منهم خمسة مستعمرين فرنسيين ومستعمرين جزائريين أي ما يكاد يعادل ١,٠٥% من الـ٢٠٩٠ تلميذاً.

وفي المجموع نرى أن الفئات الميسورة ليست ممثلة تمثيلا كثيفاً في التكميلية: فبين عامي ١٩٢٩ و١٩٥٦ كان ١٤,٦٧% من التلامذة هم من أبناء الأعيان والتجار والمزارعين ومربي الماشية الأثرياء والمعتاشين من الأرزاق.

وفي الفترة نفسها ١١,٦٧% من تلامذة تكميلية أزرو هم من أبناء الكوادر المتوسطة في القطاع العام ومن أبناء المعلمين والكتاب المنتدبين وأمناء المجالس العرفية والمترجمين.

هذه الفئات المهنية الاجتماعية ـ حرفي وحانوتي وفلاح ـ إلى جانب الموظفين الصغار كانت تشكل المجموعة الاجتماعية الأكثر تمثيلاً وذلك بنسبة ٥٢,٥٢% من التلامذة.

لننزل بعد درجة في سلم التسلسل الاجتماعي وندرس الطبقات الشعبية الممثلين بشكل واسع في التكميلية وذلك بنسبة ٣٢,٧٥% من التلاميذ. وندخل في هذه الفئة ٥١ عاملا و٣٩ عامل بناء و٣٨ أجيراً و١٨ مصلح سيارات و١٦ سائقا و١٨ عاملا و١٢ حارسا و١٣ عامل منجم. ولا ننسى في لائحة الأعمال المتواضعة ٤٧ خادما وخادمة وعشيا و٢٦ راعيا و٢١ حلاقا و٦ سقايين و٣ منادين.

وأدنى الدرجات في التسلسل الاجتماعي تعود إلى هؤلاء الفقراء والبؤساء الذين يقدرون وظيفة المدرسة تقديراً مضاعفاً، وذلك لأنها تمدهم بالغذاء الثقافي الذي من شانه أن يكون بالنسبة لهم عامل ارتقاء اجتماعي، كما تمدهم بالغذاء المادي اليومي الذي يسد جوعهم لبرهة. هذه الفئة المكونة من العاطلين عن العمل ومن الفقراء ومن أناسٍ لا مهن لهم ممثلة بشكل واسع في التكميلية إذ يشكل أفرادها نسبة ١٨,٠٣% من التلامذة.

د. تحليل المعطيات

حرصا منّا على تجانس الدراسة لم نبقِ سوى ٢٠٢٥ تلميذا لأننا لم نجد

معلومات تخص ٦٥ من التلامذة القدامى من أصل أوروبي، ثلاثة منهم من فوج ١٩٤٨-١٩٤٩ أما الآخرون فتفاوت وجودهم في التكميلية بين ١٩٤٩ و١٩٥٥ وغادروا جميعا المغرب عند الاستقلال.

هـ. وصف تلامذة التكميلية البربر

نلاحظ أن ١٣ تلميذاً من الطبقة الميسورة تخطوا سن العشرين مقابل ٦ من الطبقات المحتاجة. ما تبقى من التلاميذ أي ما يقارب الألفين هم حديثو السن. والتلاميذ عموماً غير متزوجين قبل دخولهم التكميلية باستثناء ١٣ منهم أي نسبة ٠,٦%.

لائحة ٢: توزيع التلاميذ وفقاً لأصول أهالي التلاميذ الاجتماعية (%)

الأصل الاجتماعي	العدد	%
من دون جواب	١٦٣٣	٨٠,٦
قائد	٢٠	٥,٩
باشا	١٠	٠,٥
شيخ	٣٥	١,٧
ضابط	١	٠
عسكري	٢٣	١,١
أعيان	١٨٦	٩,٢
قاض	٢	٠,١
خليفة	١٤	٠,٧
فقيه	١	٠
المجموع	**٢٠٢٥**	**١٠٠**

نرى من خلال هذه اللائحة أن ١٧٩ تلميذاً هم من أبناء القادة/ شيخ/ خليفة/ باشا، أي نسبة ٨,٨% في حين أن ١٨٨ تلميذاً هم من أبناء الأعيان أي ٩,٣% من هذه الفئة من سكان الأطلس الأوسط. مما يعني أن ١٨,١% من تلاميذ تكميلية أزرو يأتون من الطبقات العليا من المجتمع. في المقابل ١٦٣٣ تلميذا أي ٨٠,٦% منهم مَنْ والده متوسط الحال أو فقير. إن غاية التكميلية هي تعليم عدد كبير من أبناء قادة

وأعيان جبل الأطلس الأوسط اللغة الفرنسية وإعدادهم بالأساليب الفرنسية. لكن هذه الغاية لم تتحقق.

بجمع التلاميذ بفئات متجانسة نصل إلى طبقتين منفصلتين: طبقة ميسورة وطبقة محتاجة. من مجمل الفترة الزمنية، ما يقل عن ربع التلامذة بقليل، ينتمون إلى الطبقة الميسورة، في حين أن اكثر من ثلاثة أرباعهم هم من الطبقة الفقيرة.

لائحة ٣: توزيع التلاميذ على الطبقات الاجتماعية

الأصل الاجتماعي	العدد	%
بدون جواب	١٢	٠,٦
الطبقة الميسورة	٣٧٣	١٨,٤
الطبقة الفقيرة	١٦٤٠	٨١
المجموع	**٢٠٢٥**	**١٠٠**

٤. مستقبل التلاميذ المهني

لائحة ٤: توزيع التلاميذ مهنياً

	العدد	%
بدون جواب	١٠٩٥	٥٤,١
ضابط كبير	٩١	٤,٥
حاكم	٣٣	١,٦
وزير	٤	٠,٢
قائد - باشا	٦٧	٣,٣
ضابط	١٦٩	٨,٣
ضابط صف	١٨	٠,٩
قاض	١٠٦	٥,٢
مدرس	٧١	٣,٥
كادر	١٠٠	٤,٩
مزارع-مربي مواشي	٧٧	٣,٨
وظائف صغيرة	٣٠	١,٥
وظائف إدارية مختلفة	١٠٢	٥
تاجر	٦٢	٣,١
مجموع	**٢٠٢٥**	**١٠٠**

رأت العائلات التي استطاعت إدخال ابن أو أكثر من أبنائها إلى تكميلية أزرو طموحاتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية تتحقق. خلال هذه الفترة كان تلاميذ أزرو فور خروجهم منها يدخلون إلى مدرسة عسكرية ومنها يتسلمون وظيفة ملازم احتياطي. فلا يبقى لهم سوى صعود سلم المراتب العسكرية ليصلوا في نهاية خدمتهم العسكرية إلى قمة الهرم.

ومن ١٩٢٩ إلى ١٩٥٨ دخل ١٣,٧% من قدامى تلامذة التكميلية في الجيش في حين أن ٢٣,٧% منهم يعملون في القطاع المدني. أما ٦,٩% فعادوا إلى الزراعة وتربية المواشي ٣,٨% وتوجه ٣,١% نحو التجارة.

كان من نصيب تكميلية أزرو في صفوف الجيش الملكي ٩١ ضابطاً من مراتب القادة (٤,٥%) منهم ١٣ قائداً (عميد فما فوق)، و١٦٩ ضابطا (٨,٣%) و١٨ ضابط صف (٠,٩%).

كان من نصيب التكميلية في القطاع المدني ٣٣ حاكما (١,٦%) و٤ وزراء (٠,٢%) و٦٧ قائداً وباشا (٣,٣%) ١٠٦ حاكماً (٥,٢%) و٧١ معلماً (٣,٥%) و١٠٠ كادر (٤,٩%) و١٠٢ موظفون موزعين على الإدارات المختلفة (٥%). واحتل ٣٠ من قدامى أزرو وظائف صغيرة (١,٥%).

لم يغير حكم الوصاية الفرنسي المظهر الاجتماعي في المغرب فحسب بل عدل الهيكلية الإدارية وعملها. إن إدارة حديثة تستلزم خبرات عقلانية عليها أن تستبدل الكوادر القديمة بكوادر أعدت على النهج الحديث بمشاركة فعالة لسلطات الاستعمار. وبالفعل دخل عامل جديد هو تعلم اللغة الفرنسية ومعرفتها.

أ. الاستمرارية في اختيار المستقبل المهني

عندما ندرس المهن الجديدة التي مارستها الدفعات الأولى التي تخرجت من التكميلية ما بين تشرين الأول ١٩٢٩ وشباط ١٩٤٤ والتي تضم ٣١٤ تلميذا، غالبيتهم من تلاميذ القسم الداخلي وهو رقم مطابق تقريبا لعدد التلاميذ الذين تابعوا دروسا تخولهم الحصول على وظائف، نلاحظ استمرارية في الخيارات المهنية.

لائحة ٥ : المهن التي مارسها تلامذة أزرو (١٩٢٩-١٩٤٤)

	العدد	النسبة (%)
بدون جواب	١٢٦	٤٠,١٢
المحاكم العرفية	٤٤	١٤,٠١
خودجة	٣٥	١١,١٤
المدرسة الحربية	٣٣	١٠,٥٠
مدرس	٣٠	٩,٥٥
عامل هاتف	٨	٢,٤٥
ملاك كبير	٨	٢,٥٤
موظف بريد	٨	٢,٥٤
ممرض	٦	١,٩١
موظف شركات خاصة	٦	١,٩١
موظف إدارات مختلفة	٣	٠,٩٥
عامل حدائق	٣	٠,٩٥
تجار	٢	٠,٦٣
مستخدمون في تربية الماشية	٢	٠,٦٣

التوجه التي فرضته التكميلية واضح جداً في هذه اللائحة. فهو يبين جميع الخدمات التي قدمها إلى السلطات الاستعمارية تلاميذها القدامى لا سيما لوزارة شؤون السكان الأصليين.

ب. مصير القدامى بعد الاستقلال

المهن التي مارسها التلامذة عند خروجهم من التكميلية طوال الفترة تؤكد الصورة التي رسمناها للفترة الأولى. وهي تخص ٥٤٨ تلميذاً أي ٢٧,٠٦% من التلامذة. فهم إما ينخرطون في الجيش أو في الوظائف العامة أو الوظائف المختلفة أو يتجهون نحو الزراعة أو تربية الماشية وفي درجة ثانية نحو التجارة. ويظهر الفرز الذي قمنا به توزيع قدامى تكميلية أزرو البربرية في جميع الإدارات.

وتبقى الداخلية والجيش والعدل والتعليم والإدارات المختلفة هي القطاعات التقليدية التي ينخرط فيها قدامى أزرو.

أما الزراعة وتربية المواشي فهي أيضا من القطاعات التقليدية، ولكننا لا يجب أن نتوهم. فمن لم يستطع متابعة الدراسة في الاختصاص الذي اختاره يعود إلى سابق عهده تماما كما تمناه منشئو التكميلية.

«أكمل أين وللقيام بماذا؟» «تريد ترك التكميلية؟ ستعود لمساعدة والدك فهو مزارع أو مربي ماشية وسوف تساعده».

ج. الجيش

«أكمل أين وللقيام بماذا؟» - «أنا بعد التكميلية أريد الدخول إلى مدرسة دار البيضاء الحربية.» - «آه جيد سوف تقوم بخدمة فرنسا.»

كان الدافع لاختيار هذه الطريق عوضاً عن غيرها، الوصول إلى رتبة ضابط لأنها توفر موقعا اجتماعيا مرموقا ومطابقاً تماما للموقع الاجتماعي الأصلي. فجميع الذين تم استجوابهم أكدوا انبهارهم بموقع الضابط. في المقابل لم يكن من السهل استدراجهم للقبول بأن يصبحوا خلال وقت قصير ملازماً أو عريفاً. إذ أنه لم يكن من السهل إيجاد مرشحين لهذا الخيار بموافقة أهلهم.

لائحة ٦: معلمون ومدربون في المدارس البربرية

	العدد
تكميلية أزرو البربرية	١٤٢
سفرو	٨٢
خميسات	٢٥
تيفلات	٧
كسار السوق(الرشيدية)	٢
ميدلات	١
المجموع	**٢٥٩**

كان سلك التعليم وهو حجر الزاوية في نشر اللغة الفرنسية، ممثلا تمثيلا جيداً وشكل المعلمون القاعدة المتقدمة للحركة الوطنية في المحيط الريفي الذي ينتمون إليه في غالبيتهم كي لا نقول جميعهم. وقد نفذ السي حمو بن محمد الذي كان مدرسا في تكميلية ازرو المهمة التي أسندت إليه على أكمل وجه وفي إضراب ٥ شباط ١٩٤٤. أما بو عزة بن عبد السلام الملقب بـ«غرغنتيا» (لأنه كان يحب الأكل) فقد كان وطنياً كبيراً ساهم مساهمة فعالة في ازدهر مدرسة غسوس -بلافراج Guessous-Balafrej في الرباط.

أعطت تكميلية أزرو البربرية والمدارس الفرنسية البربرية ٢٥٩ مدرسا. من مدرس مساعد إلى مدرس أصيل و/ أو مدير مدرسة توالى بعضهم على رأس تكميلية أزرو كما حصل في خميسات حيث أعد محمد بلحسين بدوره، وهو من قدامى الجيل الأول، أجيلاً من التلاميذ. وسار محمد براحو المسار نفسه عندما أصبح مدير تكميلية فقيه بن صلاح.

د. مترجمون وكتاب جلسات المحاكم العرفية

أكمل أين وللقيام بماذا؟ «أنا ساكون موظفاً في المحاكم العرفية» - «هذا جيد».

لائحة ٦: المترجمون وكتاب جلسات المحاكم العرفية حسب توزيعهم على المدارس

	العدد
تكميلية أزرو البربرية	١١٣
سفرو	٨
تيفلات	١

توفر هذه المعادلة منافع ثلاث: تؤمن المهنة والموقع؛ تشجع الطموح للدخول إلى التكميلية؛ أخيراً تسهل الوصول إلى الهدف الأسمى والذي أصبح بغنى عن الإثباتات والأدلة: إرجاع أبناء الزعماء والأعيان وهم دعائم البلاد البربرية، إلى حياتهم القبلية.

لائحة ٧: شهادات تلامذة تكميلية أزرو حسب الأصول الاجتماعية (%)

	الصف	الصف	المجموع
غير الملتحقين بمدرسة	٠,٨	٠,٠	٠,١
شهادة التعليم الابتدائي	٣٣	٣٠٣	٨,٨
شهادة التعليم المتوسط	١٣,٩	٣,٨	٥,٧
بدون شهادات	٣٤,٦	٨٤,٥	٧٥,١
شهادات أخرى (بكالوريا)	١٧,٤	٨,٣	١٠,١
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠

الغرابة الحسابية المتمثلة بنسبة ٠,٨% من غير الملتحقين بمدرسة تخص ثلاثة من أبناء القادة ويعود سبب ذلك لمصالح سياسية واضحة للمدرسة الحربية التي تخرجوا منها ضباطاً ليحلوا محل آبائهم. ويتأكد التفوق العددي في الحصول على شهادة نهاية الدراسة في التكميلية، وهي شهادة الدروس الثانوية لأبناء الطبقة الميسورة إذ إن ١٤% منهم حازوها مقابل ٣,٨% من أبناء الطبقة الفقيرة. وبالنسبة للذين سمحت لهم الفرصة بمتابعة دروسهم فإن ١٧,٤% من أبناء الطبقة الميسورة، حازوا شهادة البكالوريا ودخلوا الجامعة والمدارس العليا في حين لم يحصّل هذه الشهادة إلا ٨,٣% من أبناء الطبقة الفقيرة.

ولكن جائزة التعليم الاستعماري تعود من دون أي شك إلى غير المجازين التي عادلت نسبتهم ٣٤,٦% من أبناء الطبقة الميسورة و٨٤,٥% من أبناء الطبقة الفقيرة. ولكن يجب أن ننظر إلى هذه الأرقام بنسبية. فهنا أيضا ملاحظة تفرض نفسها: لا يعني غياب الشهادات بالضرورة فشل المدرسة الاستعمارية البربرية. فالعديد من التلاميذ وصلوا إلى الصف الثالث التكميلي من دون شهادة تعليم ابتدائي أو شهادة تعليم متوسط وتركوه مجبرين وقبلوا بأول وظيفة عرضت عليهم.

لائحة ٨: المستقبل المهني حسب الطبقة الاجتماعية والفئات

	بدون جواب	الطبقة الميسورة	الطبقة الفقيرة	المجموع
بدون جواب	١٦,٧	٦,٢	٦٥,٢	٥٤,١
ضابط كبير	٨,٣	١٦,٩	١,٦	٤,٥
حاكم	٨,٣	٥,٦	٠,٧	١,٦
وزير		٠,٨	٠,١	٠,٢
قائد- باشا	١٦,٧	١٠,٢	١,٦	٣,٣
ضابط	٢٥	٣٠,٨	٣,١	٨,٣
ضابط صف		٣,٨	٠,٢	٠,٩
قاض	١٦,٧	٥,١	٥,٢	٥,٢
مدرس		١,٦	٤	٣,٥
كادر		٦,٢	٤,٧	٤,٩
مزارع_مربي ماشية		١١,٨	٢	٣,٨
وظائف صغيرة			١,٨	١,٥
أوروبيون				
وظائف إدارية مختلفة	٨,٣	١,١	٥,٩	٥
تجار			٣,٨	٣,١
المجموع	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

أنجزت هذه اللائحة من خلال المعلومات التي جمعت من سجلات تسجيل التكميلية واستكملت هذه المعلومات لمتابعة المسار المهني لأفواج التلاميذ، بمعطيات منشورة في الجريدة الرسمية للملكة المغربية من عام ١٩٥٦ إلى عام ١٩٧١ وأثريت بمقابلات أجريت مع مسؤولين قدامى عن جمعية قدامى التكميلية.

نذكّر مرة بعد بالطابع النسبي للنتائج التي توصلنا إليها. وكما نرى فإن التسرب الدراسي الذي يسبب العدد الكبير من عدم الإجابة يجبرنا على نهج متواضع. إلا أن النسب التي توصلنا إليها ليست فاقدة لأي معنى. فليس صدفة أن نلاحظ أن الفرق شاسع في التسرب الدراسي بين الطبقات الميسورة (٦,٢%) والطبقات الفقيرة التي

ترى ٦٥,٢% من أطفالها من دون أي شهادة تؤملهم بوضع أفضل من وضعية عاطل عن العمل أو راع في أفضل الأحوال.

فالملاحظة العامة الأولى هي أن تكميلية أزرو لا ترتبط فقط بمنطق إعادة إنتاج نخبة ولكن تساهم في عملية تحركها، أي أن يتحرك من خلالها أشخاص بين النخبة واللا نخبة. وقد لاحظ باريتو Pareto عندما درس انحطاط وتجدد الأرستقراطية أن «عائلات الطبقات الأدنى تعيل الطبقة الحاكمة ليس فقط كمياً ولكن أيضاً والأهم نوعياً».

أما الملاحظة الثانية فهي أن جميع المهن «التقليدية» استبدلت بوظائف جديدة أفرزها تطور النظام الاستعماري إذ إنه شجع إصلاحات إدارية في قطاعات كالعدل والتعليم التي أتاحت بدورها نشوء كوادر جديدة.

أما الملاحظة الثالثة فتتعلق بهيمنة القادة والأعيان الممثلين في جميع فئات النخبة الحاكمة.

أما الملاحظة الأخيرة فهي أن العملية العامة لنزع الاستعمار أدت إلى تغييرات داخلية لا يمكن فهمها على أنها تطور منتظر نوعاً ما، بل على أنها سلسلة من التصدعات الوجودية العميقة.

نشهد انقلاباً في النظام المتعارف عليه للارتقاء الاجتماعي، لأن هذا الارتقاء لا يتطابق دائماً مع مسار مهني مبني بمعايير طبيعية. ويتجلى هذا الوضع لدى بعض الفئات التي لا تملك من المخزون العلمي سوى شهادة الدروس الابتدائية التي حصلت عليها في وقت كانت فيه هذه الشهادة في عصرها الذهبي. لكن هذا لا يمنع هذه الشهادة الصغيرة، يضاف إليها بعض الخبرة، من أن تقود حاملها إلى نقطة تحول عميق تتمثل بالارتقاء السريع.

هـ. القضاة

ويتأكد الاتجاه نفسه بين القضاة إذ ٥,٨% منهم من أبناء القادة و٥,٧% من أبناء الشيوخ و٥,٤% من أبناء الأعيان. نحن هنا أيضاً أمام مجتمع أحدثت فيه تغيراته انقلاباً في النظام المتعارف عليه للارتقاء الاجتماعي. فقد حملت هذه التغيرات إلى الحكم رجالاً لم يكتمل إعدادهم المهني.

و. القادة

نحن أمام حالة إعادة إنتاج اجتماعي إذ إن الطبقة الميسورة الممثلة بشكل خاص بالقادة أعطت ١٠,٢% من القادة الجدد في حين أن الطبقة الفقيرة أعطت ١,٦% منهم. ولكن بسبب الحاجة الكبيرة لها ولاسيما في المناطق الريفية، حيث كانت تعم الفوضى، وانعدام الأمن، لم يكن هناك من تردد في الإتيان بأفراد من وزارات أخرى لمؤازرة الشرطة في عملياتها.

ظاهرة إعادة الإنتاج موجودة أيضاً في عائلات القادة، إذ إن هذه العائلات أنتجت ١١,٧% من القادة والقادة الكبار والبشاوات، ثم تتبعهم فئة الأعيان التي أنتجت ٩,١% من القادة ومن ثمّ فئة الشيوخ مع نسبة ٨,٦%. ويجب أن نتوقف عند النسبة المهمة من القادة الآتين من العائلات العسكرية: ١٧,٤% وهذه النسبة قريبة من نسبة الضباط والضباط القادة المنتمين إلى هذه العائلات. بالفعل غالبا ما كان يعيّن العسكريون قادة في مواقع يقال إنها خطرة أو في مواقع حدودية ليست مجردة من المخاطر هي الأخرى.

من ناحية أخرى كان الضباط القادة الذين يتم تعيينهم حكاما يعينون غالباً عسكريين على رأس قيادة المقاطعة.

ومن جيل الأباء هناك بعض الأعيان الذين سيحتلون أهمية كبيرة على ساحة المغرب المستقل: تمت ترقية لحسن اليوسي القائد السابق ليحتل منصب وزير الداخلية وأصبح أدي أو بيهي أخر حاكم لتفلالات. ودفع آخرون ثمن عدم خبرتهم في الحنكة السياسية إذ إنهم شاركوا عن جهل أكثر منه عن اقتناع في دسائس الغلاوي الذي تسبب لهم بمذاق الغضب الملكي المر. لم يرفض سوى ١٤ قائداً ومنهم محجوبي أحردان، ومبارك بكاي، ولحسن اليوسي تنحية السلطان محمد بن يوسف في حين شارك ١١٧ منهم في الانقلاب عام ١٩٥٣. لكنهم برّئوا جميعاً عام ١٩٦٣.

لم يعان الأبناء من أخطاء الآباء. فهم حلوا محل آبائهم في الطبقة الحاكمة. قامت تكميلية أزرو، وهي «منجم الموظفين»، بتغذية مديريات وزارة الداخلية بالكوادر. وعند الاستقلال كانت هناك ضرورة طارئة لإعادة الأمن إلى المناطق الريفية وكان هؤلاء القدامى من أكثر المؤهلين للحلول محل ضباط الجيش وضباط

الشرطة. فمن أصل ٣٢٠ قائداً في الخدمة عام ١٩٦٠ كان ٢٥٠ منهم من قدامى تكميلية أزرو.

ز. الحاكمون

تدل حصيلة سنوات الاستقلال الأولى على أهمية الدور الذي لعبته القوات الحربية الملكية في حل المشاكل الرئيسية التي واجهت البلاد بعد انتهاء حكم الوصاية: دوام الملكية، والاستقرار السياسي، والوحدة السياسية والاجتماعية، والوعي الوطني، والنمو الاقتصادي، وإعداد كوادر إدارة وتنفيذ.

وطالما شدّد الملك على دور الجيش في الواجبات المدنية:

«لقد كلفنا بعض ضباطنا في المشاركة بإدارة بلادنا بصفة وزراء وحاكمين وموظفين كبار. لقد ساهم جيشنا في إعداد مديري وزارة الداخلية لأننا مصممون على الجمع بين صفات الضابط المعنوية والجسدية ومؤهلات رجل الإدارة.»

تتقاسم القوات الحربية الملكية والداخلية الحس بالهوية المشتركة. والعديد من موظفي الداخلية هم من قدامى أزرو الذين كان الجيش قد أعارهم بشكل مؤقت لهذه التكميلية. وكانت أحياناً صلات قربى عائلية حميمة تربط بين موظفي «المخزن» المعتبرين غالباً من موظفي الداخلية وضباط القوات الحربية الملكية. فقد كان أخ القائد المقدم أوفقير أميناً عاماً لمنطقة تيفلالات وكان أددي أو باهي حاكماً. الروح العسكرية التي طبعت وزارة الداخلية عن طريق مديرية الشؤون السياسية والتي تحولت تحت إدارة الجنرال نوغيس إلى مديرية الداخلية، شهدت أوجها تحت سيطرة شخصيتين بربريتين قويتين ومتكتمتين تم إعدادهما في قالب التقاليد العسكرية الاستعمارية وهما العقيد مبارك بكّاي واللواء أوفقير الذي هو نفسه من قدامى تكميلية أزرو البربرية.

لم يعد إذن من قبيل الصدفة وجود فائض من قدامى أزرو ممثلين في قطبي السلطة الرئيسيين، وهذا التمثيل هو من جميع الطبقات، حتى وإن كنا أصبحنا بغنى عن إثبات تفوق تثميل إحداها. هكذا فإن الطبقة الميسورة ممثلة تمثيلا جيداً في السلطة مع ٢١ حاكماً أي بنسبة ٥,٦% تتبعها الطبقة الفقيرة مع ١١ حاكما أي ما يعادل النصف تقريباً وبنسبة ٠,٧% مما يشكل بالنسبة لها طالعاً جيداً يشير إلى ارتقاء اجتماعي برّاق.

عندما يصبح أحد قدامى أزرو وزيرا وحاكماً فإن منصب الحاكم يبدو الأهم. فمن بين ثمانية من قدامى أزرو أصبحوا وزراء، ثلاثة منهم أصبحوا أيضاً حاكمين: عبد الحميد زموري ومحمد تادلي ومحجوبي أحردان؛ أما الخمسة الآخرون فيمكننا القول إنهم لم يتسلموا سوى منصب وزاري. ومنهم حسن زمور أحد قدامى المدرسة الفرنسية الوطنية للإدارة ومدير سابق لمكتب محافظ مدينة كامبار الفرنسية حيث ألف كتاباً حول إدارة محافظة ألفينيستار الفرنسية. عاد إلى المغرب عام ١٩٥٣ حيث عمل في وزارة العمل، ثم في وزارة الداخلية، في الشؤون الإدارية، حيث صمم تقطيع البلديات في المغرب، واعتمد هذا التقطيع أساسا للانتخابات البلدية الأولى عام ١٩٦٠ التي حوربت من قبل حزب الاستقلال الذي كان يريد تأجيلها. من أمين عام لوزاة الداخلية إلى جانب دريس محامدي أصبح وزيراً للزراعة. ثم أقيل من منصبه، بسبب وقوفه ضد تجزئة الملكية الزراعية، ووقع في النسيان لفترة ما، ليعين بعدها مدير شركة مناجم الفحم الحجري الإفريقية ومن ثم مدير عام التجمع المغربي لغرف التجارة والصناعة. تَم طلبه من جديد لمنصب وزاري فسلم وزارة التخطيط المدني والبيئة والتجهيز وكان أول من وضع خطة للحد من انتشار مساكن الفقراء حول المدن فأطلق فكرة المساكن القليلة الأجرة ونجح بها بشكل جزئي. وفي آخر حياته المهنية تبوأ مناصب مهمة في القطاع الخاص وهو اليوم يعيش في عزلة.

أما تامي عمار فقد عُيّن في المجلس الوطني الاستشاري كممثل لهذه الجمعية في مجلس النواب الاستشاري، ثم عيّن وزيراً للزراعة ليعود ويدرس الزراعة في مدرسة سيحلا العليا، ومدرسة مكناس العليا. نجا بمعجزة من توقيف جميع مسؤولي الاتحاد الوطني للجبهة الشعبية عام ١٩٦٣ في إطار ما سمي بالمؤامرة. يقال عنه إنه من إنتاج المدرسة الاستعمارية المحض.

ومن بين الوزراء الثلاثة الباقين نجد أخيراً حدو شقير ومحمد شفيق الذي طلبه الملك الحسن الثاني في شباط ١٩٧٠ لتسلم وزارة التربية في وقت كانت تمر فيه الجامعة المغربية بإحدى أخطر الأزمات في تاريخها. ولا يسعنا أن ننسى خادم الدولة الوفي: اللواء أوفقير.

ح. الضباط الكبار والحاكمون

إذا عدنا إلى اللائحة التي تحلل الأصل الاجتماعي والمستقبل المهني نرى أن

القادة أعطوا ١٦,٧% من الضباط الكبار والأعيان ١٣,٤%. أما الشيوخ وهم من النخب المحلية أيضاً فقد أعطوا ١٧,١% من الضباط الكبار. أما العسكريون فإن نتائجهم لا تفاجئنا إذ إنهم عن طريق عملية إعادة الإنتاج يفرزون ١٧,٤% من الضباط الكبار و٥٦,٥% من الضباط العاديين و٤,٣% من ضباط الصف. نجد من بين الفئات الأقل تمثيلاً الباشوات والخلفاء والقضاة وهذا الأمر لا يفاجئ في وسط ريفي كانت فيه هذه الوظائف نادرة.

وسيصبح العديد من الضباط الكبار حاكمين. وهنا نجد من جديد نفس النسب إذ إن عائلات القادة تعطي ٩,٢% من الحاكمين وعائلات الأعيان ٤,٨% وأبناء العسكريين ٤,٣% وأبناء الشيوخ ٢,٩%.

قدامى أزرو هؤلاء، قادة كانوا أم حاكمين اعتلوا مناصب كبيرة في القوات المسلحة الملكية. أما الآخرون فقد تكللت مسيرتهم المهنية بالنجاح مما قادهم إلى اعتلاء ارفع المناصب، الأمر الذي يضعهم من دون شك في مدار النخبة في السلطة.

وإذا وجدنا بعد الفحص والتدقيق أن الطبقة الميسورة يفيض تمثيلها في المراتب العليا للسلطة فإن الطبقة الفقيرة تجد بعض الذين يمثلونها أيضاً ولا سيما ابن فقيه وصل إلى رتبة لواء. وتعطي بالفعل الطبقة الميسورة ١٧% من الضباط الكبار ومنهم الألوية وعدة عقداء ومقدمين ولكن الطبقة الفقيرة ليست غائبة تماماً إذ إنها ممثلة بـ ١,٦% من الضباط الكبار منهم ألوية وعقداء. ولكن إذا نظرنا إلى نسبة التسرب الدراسي (٦٥,٢%) المرتفعة نسبيا والتي يقع ضحيتها أولاد الطبقة الفقيرة مقارنة بنفس هذه النسبة من أولاد الطبقة الميسورة (١٦,٧%) نجد أنها مقنعة لاسيما أن أبناء «المخازني» أو المزارع الفقير أو عامل البناء أو الفقيه ما كانوا ليتخطوا رتب الخيال أو العريف أو الرقيب لولا أن الحظ لم يسعفهم في الدخول إلى المدرسة الحربية بأقل مستوى دراسي مطلوب كشهادة الدراسة الابتدائية.

ويزيد من هيبة الرتب العليا تقارب عن طريق الزواج بعائلة من العائلات الميسورة. هذا التقارب يمنح ضابط أزرو فوائد مادية جمة. هكذا تزوج لحسن أو بوشتا عندما كان ضابطاً في الجيش الفرنسي برتبة عقيد فتاة من عائلة ليوسي الكبيرة ثم أصبح قائداً ووزيراً للداخلية في حكومة الاستقلال الأولى.

ولكن الارتقاء الاجتماعي وتكون النخب الجديدة أصبح أكثر اعتماداً على

امتلاك الثقافة منه على امتلاك الأراضي والأموال. واكتسبت هذه النخبة الجديدة ذات الطابع العسكري معارف «تقود إلى التكنولوجيا» مما يمنحها حقا مطلقا في استعمال العنف كأفضل وسيلة لتكريس موقعها وتشريعه وبالتالي الحفاظ على جميع امتيازاتها.

ط. الألوية

كان إدريس بن عيسى مفتشاً سابقاً في القوات المسلحة الملكية وقد توفي بعد أن تقاعد قبل نهاية خدمته. آتياً من خميسات، كان أثناء تواجده في تكميلية أزرو من المشاغبين والأقوياء. بعد أن تمت ترقيته إلى رتبة عقيد ملازم في سلاح المشاة في أول كانون الثاني ١٩٦٢ رفّع إلى رتبة لواء في ٣ آذار ١٩٦٩.

أما عبد السلام بن قائد الحسن فقد عمل بظل أفقير كحاكم لأوجدا والدار البيضاء قبل أن يعين مدير مدرسة دار البيضاء الحربية. تمت أيضاً ترقيته إلى لواء، قائد الحرس الجمهوري.

تمت ترقية حمو أو عقا الزعيني، قائد المنطقة العسكرية الأولى إلى رتبة لواء منذ عام ١٩٦٤. وعندما لم يكن بعد سوى عقيد كان يحتل منصب حاكم منطقة كسار السوق. تم إعدامه في ١٣ تموز ١٩٧١.

كان اللواء عبد الرحمن حبيبي ولد سيدي محمد من قرية الحاجب وكان متزوجاً من فرنسية مثل اللواء حمو. حاصلاً ٤ مرات على مراتب الشرف العسكري خلال الحملات العسكرية في تونس وإيطاليا وفرنسا، وكان أحد أقرب أصدقاء أوفقير.

تمت ترقية لوحسين بن البشير البوهالي إلى رتبة عقيد عام ١٩٦٢ ومن ثم إلى ربة لواء عام ١٩٦٦ ليصل عام ١٩٦٨ إلى رتبة لواء ركن قي القوات المسلحة الملكية وعين أخيراً قائد أركان عام ١٩٧١ بعد مواجهة حتى الموت بينه وبين العقيد أبابو خرج منها منتصراً.

أما محمد أوفقير فقد تمت ترقيته عقيداً في أول كانون الثاني ١٩٦٢ ورفع إلى رتبة لواء عام ١٩٦٣ تماماً كزميله في التكميلية غرباوي بن إسماعيل من عائلة «عيت دريس من عيت ملي من عين لوح» الثرية والنافذة. وقد كان أوفقير موجودا بلباس طلاب السنة الثالثة العليا لطلاب مدرسة دار البيضاء الحربية في الإجتماع الوطني الأول الذي حصل في أزرو. لقد عيّن فيما بعد مدير المكتب العسكري الملكي.

وقد رقيّ أيضا علي أو حمو وهو من قدامى أزرو إلى رتبة لواء.

حل الجيل الجديد من الألوية ومنهم اللواء كوريما واللواء محمد زياتي (وهو من أصل متواضع تمت ترقيته من رتبة ملازم عام ١٩٥٩إلى نقيب عام ١٩٦٣ ثم عقيد عام ١٩٦٨) محل الجيل القديم الذي اندثر اندثاراً شبه تام بسبب انشقاق وجودي عميق قتل فيه البعض لأنهم موالون للشرعية وتم إعدام البعض الآخر لأنهم انقلبوا على الملكية أو ظُنّ في ولائهم.